



إن المتبع لطرائق القرآن في مخاطبة النفس البشرية، وكذلك طرائق الجدال مع المعاندين سيلاحظ أن تركيز الخطاب هو على استشارة الفطرة وتذكيرها بخالقها لأنها مهيأة لذلك ومهيأة لأن تهتدى إلى أصول الإسلام، وكذلك يتوجه الخطاب إلى العقول التي لا يليق بها أن تكون بعيدة عن البديهيات، ولا تكون بعيدة عما يؤكده القرآن من حقائق.

الفطرة السليمة لا تصاب بالدهشة عندما تسمع ما يريده القرآن وما يقرره من التوحيد ومن نشر الفضائل وتقبيح الرذائل، وإدانة الفساد والظلم. فقد زوّدت هذه الفطرة ب بصيرة أخلاقية (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معانيره

هذه الفطرة السليمة والعقول المستعدة للتفكير هي قوى موجودة ولكنها بحاجة إلى الوحي كي يوجهها إلى الصواب دائماً، وإلى الطريق الأعدل، وكى يوّقظها من سباتها ويحفّزها للعمل، ولذلك يدعو المسلم في كل صلاة (اهدنا الصراط المستقيم) ولكن إذا احتفت هذه القوى وهذه الأسس أو أصابها الغشاوة على أعينها، فإن القرآن لا يؤثّر في أصحاب القلوب الغافل والاذان الصم، بل إن أصحاب هذه القلوب إذا سمعوا القرآن ازدادوا بعداً وعناداً فالبناء لا يعلو إذا لم توجد اللبنات المرصوصة، وقد تفقد الأرض التي يشيد عليها البناء، فالقلوب أوعية متفاوتة جداً، ورؤيتها للحقائق والاستفادة منها متفاوتة جداً أيضاً.

الفطرة السليمة لا تشک في وجود الله سبحانه وتعالى (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض) (ابراهيم/10) والقرآن الكريم يحث الإنسان لیستعمل عقله ويرى الأمور بشكلها الصحيح، ويفكر في الحقائق المعروضة ، قال تعالى مبينا ضعف عقول المشركين (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) (الفرقان/3) وقال تعالى داعياً الإنسان إلى التفكير في هذه الظاهرة الواضحة التي لا مفر منها (ومن عمره ننكسه في الخلق أفلأ تعقلون) (يس/68) "ومن طرائق القرآن أن يبدأ بالحجج المنطقية والبرهان العقلي ثم يتدرج إلى الإنذار والتوبیخ وبيان فساد ما عليه الكفار وأهل الباطل، قال تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام (إذ قال لأبيه يا أباٰت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغرن عنك شيئاً، يا أباٰت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصياً، يا أباٰت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولها) (مریم/42-45)" [1] وقد أوقف القرآن المشركين على اضطراب عقائدهم وتناقض آرائهم (والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء) وقال موضحاً تناقض أهل الكتاب ومغلطًا لهم طريقة تفكيرهم في ادعائهم غير المعقولة (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يغدكم بذنوبكم بل أنتم بشر مما خلق) [2]

ومن أنواع المحاجة والجدال بالحق أن يقال للإنسان : أين المذهب وأين المفر ، فإنك أيها الإنسان محاط بسنن الله الكونية وما خلق في السماوات والأرض ، هل تستطيع أيها الإنسان أن تخرج عن هذه السنن ؟ وهل تستغنى عن فضل الله وتسخيره كل شيء لك، أي أن القرآن يحيل البشر للنظر في الأمر والواقع. قال تعالى (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ إِنَّا نَسأَلُ نَفْرَقَهُمْ فَلَا صَرِيخٌ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَنْقُذُونَ) (يس/41) وقال تعالى (مَنْ كَانَ يَظْنُنَ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَيَمْدُدْ بِسَبَبِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطِعَ فَلَيَنْظُرُهُ إِلَى مَا كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ) (الحج/15) وقال تعالى (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مُرِيْمٍ قُلْ فَمَنْ يُمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنَّ أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مُرِيْمٍ وَأَمْهَ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) (المائدة/17).

ويحضر القرآن الكلام المتناقض الذي ليس عليه أي دليل، الواقع يدفعه ويكتبه، بل هو من المستحيلات كاتهام قريش – وكذلك بعض المستشرقين اليوم- للنبي صلى الله عليه وسلم أنه تعلم من أنس من أهل الكتاب كانوا في مكة، (وكذلك نصرف الآيات ول يقولوا درست، ولنبيه لقوم يعلمون) (الأنعام/105) أي قرأت على غيرك وتعلمت منهم، قال تعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر، لسان الذين يلحدون إليه أعمى وهذا لسان عربي مبين) (النحل/103) فإذا كان العرب الأقحاح وقفوا حائرين أمام فصاحة القرآن وإعجازه البصري، وقد تحدّهم أن يأتوا بمثله أو بسورة مثله، هذا وهم الفصحاء البلغاء الذين يعرفون مكانن البلاهة في القول فكيف يتعلم الرسول صلى الله عليه وسلم من عبدين من الروم كانوا في مكة؟! هذا كلام متهافت لا يقوله إلا معاند صاحب هو.

وإذا كانت هذه البراهين والحجج العقلية لا تنفع مع بعض الناس فإن القرآن الكريم يقول لهم: انتظروا المستقبل لترووا بأعينكم النتائج والمصير، وستعلمون عندئذ الحقائق (قل كل متربص، فتربيصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى) (طه/135) (وكذب به قومك وهو الحق، قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) (الأنعام/66) وقال تعالى حاكيا قول الكفار ورداً عليهم (أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْذِكْرَ مِنْ بَيْنِنَا، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِنَا، بَلْ لَمْ يَذْكُرُوا عِذَابَنَا) (ص/8) "أي لو ذاقوه لتحققو أن هذه الرسالة حق، أي هم لجهالتهم لا يستعلمون النظر ولا يستفيدين منه، ولكن يتضح لهم الحق عند مباشرة العذاب" [2]

وقد يستعمل القرآن أسلوب الرجوع إلى التاريخ ومعرفة مصير الأمم السابقة ليكون ذلك مثار التأمل والعبرة وأن السنن واحدة لا تتبدل، فما حصل سابقاً يمكن أن يحصل لاحقاً، (أو لم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكاهنهم في الأرض ما لم

نَمَكَ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنَاءَ آخَرَينَ) (الأنعام/6)

[1] – انظر ابن سعدي ، القواعد الحسان لتفسير القرآن 3/

[2] – تفسير ابن عطية

المركز الإعلامي السوري

المصادر: